هذيان (أُقصوصة)

بقلم الأستاذ ماهر الحاج علي

في زواريب الحي القديم، وبين البيوت المتكدّسة، كان يسير متهدّجاً... صدرية بالية من صوف خشن تحيط بصدره، وشالٌ أغبر يلف رقبته... حذاء أوسع من قدميه النحيلتين، ينتعله فيلائمه في سرعة احتذائه ويريحه في سيره البطيء.

في رحلته اليومية الى السوق يجرجر خطاه ساهماً ، يتعثر بحجر هنا وحفرة هناك ، ولكنه يمشي ويظل يمشي... توجيهات زوجته تصطخب في اذنيه وهي تدسّ النقود في جيب سرواله المرتّق، فتهزه مراتٍ ومرات حتى يعي ما تقول، لأنه راسخ لديها اقتناع بأنه يسبح في عالم غير عالمنا ... إنه يدرك كل ذلك بسرعة ويعي ما تقول درءاً منه لإمعانها في زعقة إثر زعقة... وهكذا يخرج المسكين هائماً على وجهه ليتجول ساعات في الأزقة وفي السوق، ماسحاً آثار النوم عن عينيه ، وزعاق زوجته عن رأسه وعن جسده المكدود بكسل مقيم. ...

****

أَزَفَتْ ساعة العودة ، وجرابه بيده اليسرى مثقلاً بالخبز واللحم والخضار... أما اليد اليمنى فلها شأن آخر : تحيات رتيبة بها يرد على الآخرين، متخيلاً بأنه يتلقاها... إنه يحيي كل من يصادفه في الطريق، هي وجوه كثيرة وأغلب الظن أنه لا يتذكرها، لكنه يصرّ على تحيتها ... ولا يتذكر بأنه أجاب على نداء ما، إذ لم يعد يستجيب لمن يناديه باسمه، فاسمه ما عاد يهمه كثيراً.. وغير مرة كان يخلو الى نفسه ويحاول أن يتذكر اسمه، فيجهد ذاكرته طويلاً بين عشرات الأسماء، وتستوقفه بعضها لطرافتها فيضحك ضحكاً متواصلاً لا ينكفئ الا عندما يتناهى اليه صراخ زوجته وهي تزجره بحدّة، فيصمت وتصمت الأرجاء كلها من حوله.

****

في منزله الذي تتراكم حوله النفايات، يدلف أحياناً من بين أسراب الذباب و البرغش، ومن الباب الخشبي القديم فيتهاوى فوق المصطبة الحجرية، لتأتيه الزوجة المصون وهي تجرجر ثوبها الاسود متفقدة إياه مع أطفال لايكفّون عن الشجار والعراك و الصراخ.. إنهم أطفاله الذين جاؤوا الى الدنيا بدون أن يدرك لذلك سبباً ، سوى أن يكون ناتجاً عن ذلك النشاط الشيطاني الذي تستثيره زوجته ببراعة قلّ نظيرها، والذي يضطر للإستجابة اليه خاصة في ليالي الشتاء الباردة ... فيدفع ثمنه الباهظ مكرهاً حين الإستحمام للتطهر من غواية الشيطان ، وهو الشيء الوحيد الذي كان يؤديه خوفاً من عقاب الآخرة .

****

بيته عبارة عن غرفة ضيقة فيها بضع فُرُشٍ عتيقة بالية وبعض مساند ووسائد وأدوات المطبخ... كل ذلك كان جهازاً للعرس حين تزوج . في تلك الأيام كان له صوت يُسمع ، وعينان برّاقتان، وجولات في الحي والحارات، وكان واثقاً بأن له أصدقاء يشعر بأنهم معه دائماً، ويندمج معهم في مداعبات وأحاديث لا تنتهي فصولاً...الى أن عصفت به بعيداً عن اصدقائه أولئك حمىّ شديدة أفقدته وعيه وأرغمته على ملازمة الفراش طويلاً، فتقاذفته الحمىّ اللعينة وعبث به هذيان لزمن طويل... وتفاقمت حالته التي لا يتذكرها إلا كأحلام غامضة، ولم يدرِ لها حالاً إلا حين تسلمته أيادٍ خشنة وأمعنت بالكيّ فوق قَذَالِه وفوق رأسه بالحديد المحمىّ على النار...إنه لازال يتذكر رائحة الشواء المتصاعدة والتي كان يضيع بعدها أياماً... سنوات كان يسمع خلالها أصواتاً لاتتوقف تردد كلاماً كثيراً لايفقهه ويحتل مسامعه... أصوات تطارده ولا يستطيع الهروب منها، ليغيب عن الوجود ويحتله شيء من الهذيان.